تعتبر صنعاء من أقدم المدن العربية وأعرقها تاريخاً وحضارة ومع التوسع الكبير الذي شهدته،ما تزال صنعاء تحتفظ بطابعها المعماري الفريد وتجمع بين الأصالة والمعاصرة، صنعاء استقبلت العام الميلادي الجديد ٢٠٠٤م وهي ترتدي حلة زاهية لمعانقة عشاقها من سياح وأدباء ومثقفين ومفكرين للاحتفاء بها كعاصمة للثقافة العربية.

وإن كانت قد سبقتها مدن كثيرة في الاحتفاء بهذه المناسبة إلا أن الحديث عن صنعاء يختلف عن غيرها من تلك المدن، لأن صنعاء بتاريخها وتراثها وفنها المعماري البديع كانت وما تزال أكثر تلك المدن سحراً وجمالاً وإبداعاً.

صنعاء.. التاريخ والحضارة

فقد ورد أقدم ذكر لمدينة صنعاء في النقوش اليمنية القديمة في نقش من عهد " هلك أمر بن كرب أيل وتريهنعم" ملك سبأ وذو ريدان في حوالي سنة ٧ ميلادية،وذكر مع مدينة صنعاء،مدينة شعوب وهي القسم الشمالي من صنعاء العاصمة وبها سمي باب صنعاء القديمة الشمالي" باب شعوب".

واسم مدينة صنعاء كما يقول الباحث والمحقق المعروف الدكتور يوسف محمد عبد الله في النقوش هو " هجرن/ صنعو ,هجرن بلغة اليمن مدينة،وصنعو مثل قرنو بدلاً من الألف والهمزة كما تدل النسبة حيث يقال: صنعاوي،وفي صحراء صحراوي،ولكن المصطلح الشائع اليوم أن يقال " صنعاني".

وذكرت صنعاء بعد ذلك في نقش يعود تاريخه إلى أيام الملك السبئي ذمار علي حوالي عام ٩ ميلادية وفي نقش آخر من أيام الملكين سعد شمم أسرع ومرثدم ويهحمد،وأيام حكم الملك وهب أي يحوز وينتمي كل هؤلاء الحكام إلى أسرع سبئية مختلفة يقدر تاريخ حكمها ما بين (١-١٢) ميلادية، بعد ذلك ذكرت صنعاء مراراً في عهد حكم الملكين" إليشرح يحصب ويأزل بين" وذلك في منتصف القرن الثالث الميلادي،وفي نهاية القرن الثالث الميلادي يصلنا نقش يتحدث عن رجال قاموا بأداء بعض الواجبات في عهد الملكين المعروفين في التراث اليمني وهما " ياسر يهنعم وشمر يهرعش" في كل من مدينتي مأرب وصنعاء وليس هناك نقوش بعد ذلك تتحدث عن صنعاء سوى ما اكتشف في بداية الثمانينات ويشير إلى أن الحبشة من صنعاء مما قد يوحي بأن النقش دون بعد عام ٥٢٥للميلاد،أي بعد الغزو الحبشي لليمن.

وبذلك يحضر ذكر صنعاء في اليمن القديم من خلال الشواهد النقشية بين الأعوام ٦- ٢١ للميلاد،ثم النصف الثاني للقرن السادس للميلاد.

ولهذا يرى الدكتور يوسف محمد عبد الله من الممكن القول أن مدينة صنعاء قد عرفت باسمها هذا في حوالي فترة ميلاد المسيح عليه السلام وإن كنا لا نقطع بالحجة ولا ننكر إيغال تاريخها في القدم، ومما يؤيد هذا الرأي هو قول المؤرخ الهمداني " إن الملك شعرم أوتر" هو الذي سور المدينة ووصل دورها كما أن نشوء مدن القيعان في المرتفعات اليمنية ثم بعد تدهور مدن الوديان في المشرق،وقد يكون من باب الصدق أن تذكر صنعاء بعد القرن الثالث حتى الغزو الحبشي،ولكن من الممكن أن نستنتج أيضا أن قيام دولة حمير الكبرى واتخاذها مدينة ظفار قرب قاع الحقل عاصمة لها قد أزاح إلى الظل كل المدن اليمنية الأخرى بما فيها مأرب وصنعاء، تماماً كما طغت أهمية مأرب عاصمة سبأ على مدن اليمن الأخرى قروناً قبل الميلاد في مشرق اليمن السعيد.

ويبدو أن صنعاء اكتسبت أهمية خاصة بعد الغزو الحبشي لليمن في عام ٥٢٥ للميلاد وحلت محل ظفار عاصمة حمير والعاصمة الأولى لليمن منذ سقوط مأرب،ويؤيد هذا القول النقش السالف الذكر والذي أشار بأن الحبشة من صنعاء كما تعكس الأخبار مثل ذلك فقالوا كان اسم صنعاء في الجاهلية أزال حتى دخلها الأحباش فلزمها اسم صنعاء يومئذ وقالوا أنه بعد أن انهزم بنو حمير وألقى ذو نواس بنفسه في اليم تولى بعده أبرهة الملك في صنعاء.

ولم تكن صنعاء قبل الإسلام وخلال حكم الأبناء – من حكموا اليمن حينها من أبناء فارس – لليمن حاضرة فحسب، إنما كانت محطة على طريق التجارة عبر الهضبة اليمنية،وهو الطريق الذي حل محل طريق اللبان في المناطق الشرقية ويفترض أن مسلك هذا الطريق كما يرى الدكتور يوسف هو ما عرف بدرب أسعد الكامل الممتد من ظفار عاصمة حمير إلى الطائف أو درب أصحاب الفيل وهو طريق يبدأ من عدن عبر صنعاء إلى مكة المكرمة وهو نفسه طريق القوافل التي كانت تحضر أسواق العرب الموسمية قبل الإسلام،وكان لصنعاء " سوق صنعاء" الذي يقام في النصف من شهر رمضان، وذلك ضمن مواسم أسواق العرب التي كانت تبدأ في "دومة الجندل بين الشام والحجاز في أول يوم من شهر ربيع الأول ثم سوق" المشقر" بهجر الهفوف حالياً ثم سوق صحار ودباً" فسوق شحر مهرة على ساحل البحر العربي وسوق عدن وصنعاء ثم سوق عكاظ، وهي من أعظم أسواق العرب.

وبقيت صنعاء بعد الإسلام محطة تجارية أيضا ووجهة كل تاجر وعالم وشاع عنها قول العرب :

لا بد من صنعاء وإن طال السفر

وإن تحنى كل موعد وانعقر

ولكنها اكتسبت ملامح جديدة حيث تركزت فيها التعاليم الإسلامية،واستجاب ثوبها الجديد لمضمون الدعوة المحمدية،وتوافرت لصنعاء في العهد الإسلامي الشروط الأساسية لإقامة مجتمع حضري بكل أدواته من جامع ومدرسة وحمام وسوق ومعمار جميل وأدب جيد وسماع مشهور عرف بعد ذلك بالغناء الصنعاني،وفي الوقت نفسه حافظت على رصانة ماضيها، فانتعشت أسواقها التقليدية واشتهرت بتنوع بضاعتها وجودة صنعتها،وحرص حكامها على مكانتها السياسية فاتخذوها مقراً لهم أو حاضرة لدولهم.

روعة العمارة الصنعانية

ويتجلى معمار مدينة صنعاء في الدور التي بسوقها القديم،ويقول مؤلف كتاب،اليمن أرض البناة" إذا صح القول أن حضارة اليمن تنعكس في معمارها،فإن مدينة صنعاء ولا ريب هي مثلها الأروع.

ودور صنعاء ليست موغلة في القدم، ولكن طابعها الإنشائي متطور بمستوى راق من الرفاه والجاذبية والجمال، وبملاءمة ذكية للشروط المناخية المحلية،بل إن سكان صنعاء قد نجحوا في أن يجعلوا من دورهم بنايات أثرية،ولا يكاد يوجد في بقعة أخرى من العالم مثل هذه النسبة العالية من المساكن الحضرية ذات التقليد القديم.

ويبلغ ارتفاع بعض دور صنعاء القديمة ثمانية أدوار ويصل بين كل دور وآخر زنار" حزام من الخارج ويعمل من مادة البناء نفسها وبأشكال هندسية رائعة الزخرفة وكل دور مستقل بمرافقه ويسمى " الحبشي" ويستعمل الدور الأرضي عادة كمخازن والدور الأول دواوين متسعة للاجتماع في المناسبات كالولاد والعرس والموت ويخصص الدور الثاني للنساء والأطفال بينما ينفرد الرجال بالأدوار العليا.

وفي معظم دور صنعاء حجرات في أعالي البيوت تسمى" مفرج" وهي مستطيلة الشكل ذات نوافذ ومنخفضة تمكن الجالسين فيها أثناء القيلولة من مشاهدة حقول صنعاء وبساتينها،ويراعى في تصميم المفرج أمور كثيرة منها تقلبات المناخ.

ولا يبين نسيج المدينة المعماري المتجانس وتبرز فيه مفارقة الحديث والقديم اليوم دون ذلك السور الذي ما يزال جزءاً كبيراً منه يكتنف المدينة القديمة، فقد كانت صنعاء حتى وقت ليس بعيد محاطة تماماً بسورها الذي تعرض مراراً للخراب ،وكان ممن أصلحه ورممه بالحجر والجص وأقام فيه سبعة أبواب الملك علي بن محمد الصليحي في القرن الخامس الهجري.

وبالرغم من التوسع الكبير الذي شهدته مدينة صنعاء إلا إن مبانيها الحديثة ما تزال تحتفظ بطابعها المعماري الفريد الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة وقد كتب أحد الالمان المهتمين بمدينة صنعاء وتراثها في إحدى المجلات بعد زيارة إلى صنعاء ربما في بداية الثمانينات أو أواخر السبعينات يقول"صنعاء المدينة الفاضلة هي حاضرة اليمن وأعرق مدينة وليس بين مدن الشرق ما يضاهيها جمالاً وسحراً.

مساجدها البديعة تسابق منائرها أجواء الفضاء وأسوارها المنيعة تحصنها الأبراج وتحميها الأبواب، خضرة أشجارها في فسيح بساتينها، دورها الفخمة تنبئ طوابقها عن زخرفة دقيقة، وعندما تسطع الشمس تبدو صنعاء تحت أشعتها وكأنها نسيج فني،يبرز من خلال سورها بألوانه الرتيبة الحمراء والصفراء دور زاهية، نوافذها مزينة بصحاف الرخام الملونة ومزخرفة بألوان بهيجة.

أبوابها الخشبية السميكة تكشف عن صنعة بهية تتألق من خلال حفرها الثري، وكل ما في تلك المدينة – الأسطورة- يومئ بسحر قصص ألف ليلة وليلة. حتى أسواقها بمصنوعاتها الملونة أمام المصنوعات الأجنبية التي تكاد تغمرها وما زال الأجنبي يجد أمامه رغم ذلك عرضاً غنياً متعدد الألوان والجوانب وفي حوانيت ،وما يزال منذ القدم تتدافع كل يوم أفواج الزوار بين أزقة صنعاء الضيقة وتتزاحم وتتعالى أصواتها.